دون انخراط ابنه «خالد» في حركة الكفاح المسلح من أجل استعادة فلسطين، لأنه بات على قناعة راسخة بأن استعادة البيت ـ الوطن «شيء تحتاج تسويته الى حرب»(١٤).

وهنا تتجاوب إجابات «عائد الى حيفا» مع إجابات «ما تبقى لكم» حيث يلتقي وعي البرجوازي الصغير مع وعي ابن المخيم في صوغ الاجابة، وتطويرها، وتوسيع حيّز حضورها في الذات الفلسطينية، التي تبدو وكأنما تصوغ ذاتها في الوقت الذي تصوغ فيه اجاباتها عن أسئلة الصحراء والموت: أسئلة منفاها وموتها في المنافي، أسئلة ماضيها الذي تحاول استعادته وترى فيه مستقبلها، أسئلة الوطن الذي اكتملت سرقته وبدا منكراً لأبنائه الذين اعتقدوا انهم عادوا الى ماضيهم فيه، واليه، باكتمال سرقته، وتوحّده تحت الاحتلال ـ كما نرى في عائد الى حيفا ـ وحين تجيب «عائد الى حيفا» عن كل هذه الاسئلة، وتكتشف وهم الاعتقاد بامكان مواصلة العلاقة مع الوطن في ظل الاحتلال، فإنها، بذلك، وبتجاوبها مع «ما تبقى لكم» تشير الى مغزى تجاوز الاطار الفردي، وتؤكد ان إعادة صوغ الذات الفلسطينية، وترسيخ هويتها، وحضورها في الحياة، يكون جماعياً أو لا يكون، وأن الطريق الوحيد الممكن لانجاز ذلك، هو النضال، وفي مقدم وسائله الكفاح المسلح، وهو الامر الذي تقوله الرواية الرابعة «أم سعد» على نحو شديد الجلاء والوضوح، وعلى نحو عميق التواشج في المنظور الرؤيوي بين أم سعد: «صوت تلك الطبقة الفلسطينية التي دفعت غالياً ثمن الهزيمة»(١٥) والراوي؛ المثقف الثوري، البرجوازي الصغير، الذي يعرف أم سعد، ويتعلم منها، لأنها «ليست امرأة واحدة»(١٦)، بل هي صوت تلك الطبقة «المسحوقة والفقيرة والمرمية في مخيمات البؤس»(١٧)؛ التي هي «المعلم الحقيقي الدائم، والذي في صفاء رؤياه تكون الثورة جزءاً لا ينفصم عن الخبز والماء وأكفّ الكدح ونبض القلب»(١٨).

ان عثور الاسئلة التي وضعت «رجال في الشمس» بداياتها، وغرست نواتها في تربة الابداع الروائي لغسان كنفاني، على اجاباتها في رواياته المتتالية زمنياً في خلال عقد الستينات، وفي حدود ست سنوات وحسب، لأمر ذو دلالة، على غير مستوى. فمن جهة، ثمة تكثيف واستشراف للواقع ولأقصى درجات الوعي الممكن لدى الطبقات الاجتماعية الفلسطينية التي تجد حضورها في روايات كنفاني، ومن جهة ثانية، ثمة تحويل عميق، فني، لزخم الواقع الفلسطيني في مرحلة التحولات المتسارعة في خلال عقد الستينات وهي المرحلة التي تتجاوب، في الواقع، مع تحولات عربية شديدة التسارع، ومن جهة ثالثة، ثمة تحويل فني لمغزى هذا التسارع في روايات كنفاني، وبخاصة «ما تبقى لكم» التي تشهد تحولات درامية لمفهوم الزمان، وتقيم تقابلاً حاداً بين الزمن الطبيعي والزمن الانساني، وترى أن الزمن يفقد ثقله وجموده، وثباته الباهظ، حين يكون مجالاً حيوياً لتحولات متسارعة، لا تكف عن اجتراح تحولات جديدة، يخلقها ويبدعها الانسان. ومن جهة رابعة، ثمة تحويل فني للمقولات الايديولوجية البارزة، والكامنة أيضاً، يعمّق صلة الرواية بالواقع، ويحفر للرواية الكنفانية، بوصفها قولاً لغوياً، أو ملفوظاً حكائياً، سياقها الفني الخاص، في إطار السياق العام للرواية الفلسطينية، ويحدّد لهذا السياق الخاص موقعه المتميز على المستوى الايديولوجي. وذلك باعتبار ان الفن «مجال خاص من مجالات الايديولوجيا»(١٩)، لأنه «تفكير عياني في تصورات تعميمية يجري انشاؤها بواسطة المفاهيم، وهو يعيد خلق الحياة في صور»(٢٠)، ويفسّرها، ويصدر حكمه عليها.

واستناداً لما سبق، قد يصدق على الرواية الكنفانية أنْ تسمى بـ «رواية التحول الفلسطيني في الستينات»، رواية سؤال الهوية والطريق، والبدء في صوغ الهوية في مجرى النضال، مثلما يصدق أن نرى الى غسان كنفاني بوصفه واحداً من صاغة الهوية الفلسطينية التي أخذت تتلمّس نفسها